

التعريب والتفتح في المغرب العربي

للدكتور محمود عبد الوكيل

«تونس»

— ان التفتح شطر اللغات الحية والحضارات المتقدمة يجب ان يكون مدروسا — لا متروكسا للصدف ، لكي يلعب دوره المكمل الفعال لثقافتنا ولقننا وأصالتنا .. والا انقلب الى خطر ماحق يهدد شخصيتنا وكياننا الاجتماعي والثقافي ، بالمسح ولذئبة ... كما نرى — لا تناقض بين قيمنا القومية وقيم الاممية في مضمار الاصاله والتفتح . نستطيع ان نأخذ عن الغير العلم والتقنية والثقافة المتقدمة وذلك بتعلم بعض اللغات الاجنبية الحية بدقة واتقان — اذا أمكن — وفي نفس الوقت نتمسك بمفومات شخصيتنا العربية والاسلامية حيث تكون اللغة العربية والفكر الثوري من عناصرها الاساسية، هذا في رأبي هو الانفتاح المنشود . أما الاقتصار فقط على الاخذ من فرنسا وحدها عن طريق لفتها وثقافتها ، فهذا هو التحجر والذوبان معا .

انه التحجر لان فرنسا هي في الواقع تعتبر في خصوم بعض الميادين العلمية والتكنولوجية متخلفة بالنسبة لعدد من البلدان المتقدمة كأمريكا وانجلترا وروسيا وألمانيا ... إلا انها تعتبر طبعاً — متقدمة تقديماً مهولاً — بالنسبة للبلدان المتخلفة جميعها . ليس من الأفضل لبلدان المغرب العربي ان تستفيد من اختصاصات — هي في حاجة اليها — ولا تجدها في فرنسا بل في بلدان أخرى متقدمة ، سواء كانت في الشرق الاشرقي أو الغرب الراسمالي ؟ . اذا كان الجواب بنعم ، فلا شك ان تعلم لغة من اللغات

ينحدث الناس كثيراً ، هذه الايام عن الانفتاح أو التفتح ، حتى غدت هذه الكلمة مبتدلة واصابها ما أصاب بعض العملات ، اثناء الازمات الاقتصادية ، من تضخم قد قضى على جزء ضخم من قيمتها اشرايية .

ولا نعدو الحقيقة كثيراً اذا قلنا ان كلمة انفتاح أو تفتح أو تعصير ، أصبحت ، في قاموس البعض ، تملأ لانهايم كل من انبرى للدفاع عن حظوظ اللغة والثقافة الوطنية ، بالتحجر والزمانة والانطواء على النفس ...

وبهذه المناسبة ، ونحن نضع بعض ملاحظاتنا حول « جدلية التعريب والتفتح » أو جدلية « الاصاله والتفتح » — تؤكد لادعاء الانفتاح والتفتح والتعصير — دون ذكر اسمائهم — ان كل من يعتز بلغته وأصالته الثقافية والقومية بطريقة ، ثورية وموضوعية ، بإمكانه ان يستفيد من عملية الاخذ والعطاء مع الحركات الفكرية والعلمية في العالم . وذلك على شرط ان تكون اللغة والاصالة الحضارية والاجتماعية هي الاصل والمنطلق ، لكل عملية تفتح عبر اللغات والحضارات الاجنبية . لذلك لن يتم هذا الاخذ والعطاء الخصب الا في شروط موضوعية معينة منها :

— تحريك قيمنا الحضارية الخالدة — وتراثنا الثوري الحافظ ، وربطها بالحركات الفكرية والعلمية المتقدمة في عالم القرن العشرين .

وادبولوجية ونفسية لا تخفى على احد . واذا صارحنا
انفسنا وضماثرنا ، فهو . في حقيقة الامر قضية
مصيرية تتحكم فيها السياسة والاقتصاد ، بحيث
تتجاوز امكانيات رجال الفكر والتربية والثقافة في
المغرب العربي . والراي عندنا ان الحل الجذري
لمشاكل كثيرة يتخبط فيها مجتمعنا المغربي اليوم ،
يكنم في بني سياسة التعريب الشامل والمرحلي .
فهل لنا ان نعرب ؟ وهل لنا ان نجعل من لغتنا
القومية ، لغة المدرسة والادارة والشارع ، والانتاج
الفكري والعلمي ...؟

از لا يمكن ، اطلاقا عزل المفهوم السياسي
لعلمية التعريب عن مفهومها الثقافي ، فكلاهما وجهان
لعامة واحدة !؟

لذلك ونظرا للشعب قضية التعريب ، باعتبارها
قضية سياسية ومجتمع ، وحضارة ، ولغة ، وشعب
ومثقفين ، وهي مطروحة اليوم بثقلها الكامل والملح
على الصمغين الرسمي والقومي ...

لذلك ونظرا لكل هذه الظروف والملايات
الادبولوجية والنفسية التي تحف بالتعريب لا يسعنا
الا ان نؤكد الحقائق التاريخية التالية :

اننا لا ننكر ابدا المشاكل والصعوبات
النفسية والمادية التي تعرقل سير قطار التعريب ،
خاصة ونحن نعلم ان الاوضاع الاستعمارية التي
رزحت تحتها بلادنا ، قد فرضت علينا واقعا ثقافيا
واقتصاديا واجتماعيا متخلفا . ان هذه التركيبة
الاستعمارية الثقيلة والبيضة قد عكست على حياتنا
الاجتماعية ارتباطا لغويا وثقافيا خطيرا .

كان هدف الاستعمار في العصور الحديثة
سواء كان فرنسيا او انجليزيا يرمي الى تمزيق
وحدة الامة العربية وتقسيم الوطن العربي الى
دويلات وكيانات سياسية عديدة ، وذلك لغاية
السيطرة على مقومات هذه الامة بجماهيرها
الكادحة ، اقتصاديا وثقافيا ولغويا ...

وكان من نتائج هذه السياسة الاستعمارية
الادماجية في المغرب العربي الكبير بخاصة ، هو
تجهيل الجماهير بلقمتها وتاريخها وواقعها ... ومن
هنا كانت وضعية شعوبنا المغربية مطابقة للحقيقة
العلمية التي صدع بها ، منذ قرون عديدة العلامة ابن
خلدون وهي تؤكد بان « الامة الغالبة تفرض على
الامة المقلوبة حضارتها ولغتها .. » .

الحية كالانجليزية او الروسية او الالمانية ...
امر لازم .

ان افتاح مغربنا على العالم المتقدم - عن طريق
نفة او نفتين من هذه اللغات الحية سيساعده - دون
ريب على الخروج من معركة التخلف بنجاح للانطلاق
بعد ذلك - الى التنمية الاقتصادية والاجتماعية
والاشماع الثقافي والعلمي والتكنولوجي ...

وهو ذوبان وانحلال لشخصيتنا وخصوصياتنا
القومية والحضارية اذا استخدمنا اللغة الفرنسية
كلفة شبه رسمية واهملنا اللغة العربية . . . لان الانفتاح
على الثقافة الفرنسية او على اية ثقافة اجنبية اخرى
يجب ان يمر عن طريق عربتنا كما أكد ذلك العالم
الاجتماعي الفرنسي جاك بارك (Jacques Berque)
في عبارته الشهيرة :

«La francité du Maghreb passe par son arabité»

لذلك طالب المثقفون في تونس والمغرب الاقصى
قبل الاستقلال وبعده بالتعريب والاصالة الثقافية
لا لاسباب عاطفية ، وانما لانه المطمح الطبيعي
والاشعبي ، والسبيل الوحيد الى تحقيق ذاتيتنا
ونهضتنا ، والمنطلق السليم نحو وحدة مغربنا العربي
كخطوة نحو وحدة وطننا الاكبر ...

الواقع ان موضوع الاصالة والتعريب هو موضوع
له حساسية خاصة ويتطلب منا قدرا كبيرا من
الموضوعية والشجاعة . قد يحدث التباس في الاذهان،
ونحن نثير الاسئلة والتساؤلات حول قضية الاصالة
والتعريب ، قضية الساعة في مجتمعنا ، هذا
الالتباس يتمثل في ان الفرض من اثاره مشكلة
التعريب في تونس او الجزائر او المغرب الاقصى هو
احراج المسؤولين او التهمج على هذه السياسة
التربوية او تلك . لكن الذي حدانا الى معالجة هذه
القضية المصيرية هو حرصنا على بناء المغرب الكبير
على اسس متينة ، كخطوة مرحلية نحو بناء الوطن
العربي .

فالواجب يفرض علينا التقد الزويه والموضوعي
لجوانب حياتنا اللغوية والثقافية وغيرها كلما شعرنا
بان هناك خطرا يهدد كياننا . ان اسلوب السكوت
والغفول الكاذب هو بمنزلة الخيانة لانه يقضي على
امل شعوبنا في التقدم والتحرر والوحدة .

نحن لا ننكر ان موضوع التعريب والاصالة هو
موضوع خطير ، قد حفت به ملايات سياسية

تركيا الفتاة . اما في المغرب باقطاره الثلاثة ، فقد قامت محاولات شرسة على يد الاستعمار الفرنسي ، ترمي فيما ترمي اليه ، الى الفرنسة والادمج ، واحلال لغة المستعمر وثقافته محل اللغة العربية وثقافتها .

لذلك اكد المثقفون المغاربة - مرارا وتكرارا - ان لغة المستعمر ، بما تحويه من ثقافة وتقاليد لا تتماشى مع متطلبات السيادة الوطنية ولا تنسجم مع مقومات الشعب العربي في تونس والمغرب الاقصى والجزائر . وانما هي - بالعكس من كل ذلك - تمسخ او بامكانها ان تمسخ - شخصيته وتلهيه عن مشاكله الحقيقية .

لذلك فواقع اللغة العربية يعود تفسيره لظروف تاريخية وحضارية . بدأت اثر عصور الانحطاط والظلام ، وبخاصة في بداية العهد التركي ، ثم تطورت الامور عندما حاولت عائلات دخيلة محاربة اللغة العربية وذلك كخطوة نحو تتركب الاقاليم العربية . وكلمة تتركب هي كلمة دارجة حتى اليوم في بعض اللهجات العربية في المغرب وتونس وتعني مثلا العبارة : « يحب بتركني » معناه « يريد ان يهلكني » (1) . من هنا ندرك العلاقة المعنوية بين عملية مسخ العرب الى اترك عثمانيين . وعملية الهلاك والاهلاك .

ان عملية التتركب هذه قد نادى بها - كما نعلم - وحاول تطبيقها دعاة الطورانية من جماعة

(1) كلمة « تركة » بتشديد الراء معناها في عامية المغرب الاقصى : سلب او نهب كل ما يملكه ، وكان « المتترك » (يفتح الراء وتشديدها) مات فصارت تركته تحت رحمة السالب . ومن هنا يتضح اشتقاق الكلمة العامية من الفصحى ، كما يتضح من استعمالها في المغرب الاقصى بالمعنى الذي اشترت اليه .